ظاهرة السقيا وابعادها الدلالية في القصيدة العربية

الدكتور حسين يوسف خريوش
قسم اللغة العربية وآدابها
جامعة اليرموك
أربد ــ الأردن

الملخص

الظاهرة التي يتناولها البحث هي ظاهرة ذات نطاق واسع ،وتنوع في المعنى ، يصعب حصرها في اتجاه بعينه . فهي تشكل اتجاهات وابعاداً متباينة ، فنحن نرى فيها تغلب العنصر الديني . وعند ذلك يمكن نسبتها الى الدين وجعلها قوة مهمة في الشعور الديني. فهي تفسير او تأويل لشعائر دينية . وقواعد متعلقة بالعادات.

وان اكثر مايعنينا في هذه الدراسة ان نستخرج النسق المعرفي في هذه الظاهرة، واظهار غرض الشاعر فيها . فالسقيا تحاول ان تبعث تجانسا حياتيا تم فقدانه بقوة الموت ، بحيث توحي بتكامل معين . بين الموت والحياة . « فتتجاوب الأضداد » في اعماق الانسان مبرزة تلك الصورة الفنية .

وتتوافق هذه النظرة الحياتية مع منازع حياتية أخرى ، أي ان هذه السقيا لاتقتصر على الرؤية الرثائية التي يتحقق فيها الفناء بمعناه الظاهر للانسان ، وانّما هي تتفق مع نزعة الانسان الذي يستشعر حالة انفصامية . بسبب الابتعاد المكاني والزماني .

The phenomenon of asking for raining "Suqia" and its indicative dimensions in the Arabic poetry

Dr Hussain Y. Khrawish
Yarmouk University
Irbid - Jordan

Abstract

The phenomenon discussed by the research is considered to be a wide and common one, where the variety of meaning makes it difficult to limit it in a particular stream . It expresses various aspects which might be contradicted; we can see the religious element dominating it,and then we can connect it to religion and make it a strong religious feeling since it illustrates some of the religious signs and other basis of customs .

What we focus on, in the study, is to point out the knowledge method expressed throughout this phenomenon and what the poet aims method asking for raining at"Suqia"which tries totransmit a kind of likeness or homogenity & life which has been lost by the effect of death strength where "contradictions response to each other" in the depth of human beings to give such image .

This sight to life is compatible to other life contradiction, which mean that asking for raining 'suqia' is not limited in the bewaiting or lamenting scene where essation occurs to human beings, but it is in a complete agreement with man trend when he feels the schizophrenia conditions because of place or time isolation .

أولا: ماهية الظاهرة وفلسفتها

إن احد اكثر مظاهر القصيدة العربية لفتاً للنظر، لا سيما في المرثية، هو شيوع استخدام ظاهرة «السقيا»، وهذه الظاهرة في بعض تشكيلاتها الفنية لايقيدها هذا المعنى الضيق الذي يمثله التشبيه او الأستعارة مثلا. ولكنها تأخذ أبعادا أرحب في بناء القصيدة الواسع. بحيث تتشابك هذه الابعاد مع وحدات القصيدة الاخرى. في رؤية كلية واحدة منسجمة.

ان هذا المصطلح التركيبي «ظاهرة السقيا» يتسع ليشمل كثيراً من معاني الحياة المتجددة، وليس هو تلك الرؤية الجامدة تحت أي معنى من معاني الموت او الفناء. وبحثنا هذا انما ينقسم الى شقين: يتمثل الأول في البحث عن مادية هذه الظاهرة، ويتمثل الاخر في مدى اهمية هذه الظاهرة وفعاليتها العقلية والفكرية والفنية. وهذا البحث ليس فلسفياً بقدر ما يرمي الى بحث ارتباط هذه النظرة التأملية بالقصيدة الرثائية وتاريخها. وسأستخدم طريقة بحث تسعى الى:

١ ـ تعرين المعاني المتنوعة ذات الأرتباط الوثيق بظاهرة السقيا التي كان لها مفاهيم متنوعة ومتطورة في تاريخ المرثية العربية.

٢ ـ وصف الاختلاف الذي اكتنف معنى هذه الظاهرة الذي برز خلال العصور الأولى ودور عصر ماقبل الاسلام في خلق معناها الاصيل وتمريره الى العصور المتأخرة التالية.

٣ ـ ايضاح الكيفية التي اصبحت فيها المرثية العربية القديمة مرتبطة بهذه العملية «السقيا» خلال تلك العصور، واخيراً.

٤ ـ الأشارة الى بعض التضمينات «المعتقدية» لهذه الظاهرة.

اكتسبت كلمة «السقيا» منذ اقدم استخدام لها معنى جوهريا واحدا، يتردد صداه في العديد من المعاني اللغوية والشعرية، وتعني ضمن دلالاتها الأساسية، «دلالة معتقدية». فالسقيا ـ بالضم، وسقاه الله الغيث وأسقاه (١)،

(١) العرب تقول لكل ماكان من بطون الانعام ومن السماء او نهر يجري لقوم أسقيت، فإذا سقاك ماء لشفتك قالوا سقاه، ولم يقولوا أسقاه كما قال تعالى (وسقاهم ربهم شراباً =

وقد جمعهما لبيد في قوله (٢) :

سقى قومي بني مجْدٍ ،واسقى نُميرا والقبائل من هلال

وفي الدعاء: سقيا له ورَعْيا وسقاه ورعاه : قال له سقيا ورعيا . وسقيت فلاناً واسقيته اذا قلت له سقاك الله : قال ذو الرمة (٣) :

وقفت على ربع لمية ناقتي فما زلتَ أسْقي ربعها وأخاطبه

وأسقيه حتى كاد . مما أبثه تكلمني احجارُه وملاعبُه

لذا ، فان الدلالة الاساسية لكلمة السقيا ، هي الدعاء والنشاط في العالم الانساني ، وبهذه الدلالة ، انما كانوا يستخدمونها .« واستسقى الرجل واستسقاه : طلب منه السقي ، وفي الحديث خرج يستسقي ، فقلب رداءه ؛ وتكرر ذكر الاستسقاء في الحديث . وهو استفعال من طلب السقيا ، أي انزال الغيث على البلاد والعباد» (٤) .

ونجد الدلالة نفسها ، ولكن باطار ديني مختلف عند العرب في عصر ماقبل الاسلام وعصر الاسلام ففي الحديث ، « كل مأثرة من مآثر الجاهلية تحت قدمي إلا سقاية الحاج وسدانة البيت» (٥) . هي ما كانت قريش تسقيه

= طهورا) سورة الانسان ، آية ٢١ . وقال ،(والذي هو يطعمني ويسقين) سورة الشعراء: أية ٧٩ . وربما قالوا لما في بطون الانعام ، ولماء السماء ، سقى وأسقى ، كما في بيت لبيد . (اللسان : سقى) وانظر ، شرح الحماسة ، للمرزوقي ، ج ١ / ١٠٠ - ١٠١) .

(٢) ديوان لبيد بن ربيعة العامري ، دار صادر ، بيروت (١٣٨٦ هـ - ١٩٦٦ م، ص ١١٠). ومجد ، ابنة تيم بن غالب - وهي ام كلاب وكليب ابني ربيعة بن عامر ، وبسببها عد بنو عامر من الحمس . لأنها قريشية . وانظر المرزوقي ، شرح ديوان الحماسة . نشره أحمد أمين وعبد السلام هارون ، الطبعة الثانية،مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر،١٩٦٨ ، ح ١/ ١٠٠ - ١٠١ .

(٣) ديوان ذي الرمة . تحقيق عبد القدوس ابو صالح . دمشق . مطبعة طربين ، ١٣٩٢ هـ - ١٩٧٢ م ، الجزء الثاني ، ص ٨٢١ .

(٤) اللسان ، مادة سقي .

(٥) انظر : البيان والتبيين : لأبي عثمان عمرو بن بحر الجاحظ . حققه حسن السندوبي ،الطبعة الثانية . المكتبة التجارية الكبرى ، القاهرة ، ١٣٥١ هـ - ١٩٣٢ م . ج ٢/٢٤ . وجمهرة خطب العرب ، لأحمد زكي صفوت . مكتبة البابي الحلبي بمصر ، الطبعة الثانية ١٩٦٢م ج /١ ١٥٦ .

الحجاج من الزبيب المنبوذ في الماء ، وكان يليها العباس بن عبد المطلب في الجاهلية والاسلام (٦) .

فالسقيا تكون جوهرية وأصيلة في مفهوم العصر الجديد ، كما هي في مفهوم عصر ماقبل الاسلام. الا ان قدرة الشاعر قبل الاسلام على ادراك هذه الظاهرة في واقع الحياة ليس مجرد ابتكار من ابتكارات مخيلته . ولكنه يرجع في الفكر العربي قبل الاسلام لما هو ابعد من الفترة المعروفة ، اي . إن هذه الحقيقة الفنية يمكن ان تتشكل في نفس الشاعر من خلال الالهام الذي يستحضره الشاعر في اللحظة الانفعالية للحدث .

باستخدام الشعر في هذه الحقبة لهذه الظاهرة . انما بدأ دورها التأريخي المتعدد المعاني . ونحن لايسعنا معرفة الواقع الأصيل لها . ما لم نبتعد عن فورية الاحساس ، ومجمل التأثيرات الخارجية . اذ ان هذه الظاهرة تدل على وجود « واقع» يوحي بامكانية تكييف الدلالة الاجتماعية البعيدة لهذه الكلمة . الا اننا لانفهم حينئذ الاستخدام المبكر لها . كما ان كلمة «السقيا» — كما سيتضح من بعد — ، تعني ضمنا « المعتقد» . وبهذا فهي ترى في الفن مجالا خاصاً بالروح ، ينهض بالعالم المادي الأدنى الى الأسمى ، وانها — السقيا — تقدم صورة صادقة عن الواقع في مرحلة معينة من مراحل تطور وعي الانسان الجاهلي ، ويصبح اول من يتأمل المعنى الجديد ، ونورد فيما يلي بعض الأشعار المتضمنة لهذه المعاني :

قالت الخنساء ترثي أخاها صخراً :

سَقى الاله ضريحاً جَنّ اعظمه ... وروحه بغزير المُزْن هطال (٧)

سقى جدثا ،اكنافَ غمرة دونه ... من الغيث ديمات الربيع ووابله (٨)

---

(٦) اللسان ، مادة سقى .

(٧) ديوان الخنساء ، تحقيق اكرم البستاني ، مكتبة صادر ، بيروت ١٩٦٣ . ص ١٠٩

(٨) الديوان : ص١٢٦ .

أسقى الاله ضريحه من صوب دائمة الرهام (٩)

وقال اوس بن حجر يرثي فضالة بن كلدة :

لازال ريحان ونغو ناضر يجري عليك بمسبل هطال (١٠)

وقال المثقب العبدي :

سقى تلك من دار ومن حل ربعها
ذهاب الغوادي : وبلها ومديمها (١١)

وقال عمرو بن قميئة :

فسقى منازلها وحلتها قرد الرباب لصوته زجل (١٢)

وقال طرفة بن العبد :

فسقى بلادك غير مفسدها صوب الربيع وديمة تهمي (١٣)

وقال سحيم عبد بني الحسحاس :

أغاضر حياك الاله وأسقيت بلادك صوب الرائح المتحير (١٤)

ويكاد هذا الثبات في المصطلح لا يغادر هذه الظاهرة عند الشعراء على مختلف عصورهم ، كما في قول عبدالرحمن الداخل يناجي نخلة :

نشأت بأرض أنت فيها غريبة فمثلك في الاقصاء والمنتأى مثلي
سقتك غوادي المزن من صوبها الذي يسح ويستمري السماكين بالوبل (١٥)

---

(٩) الديوان ١٣٤ .

(١٠) ديوان اوس بن حجر : تحقيق محمد نجم . دار صادر ، بيروت ١٩٦٧ . ص ١٠٨ .

(١١) ديوان المثقب العبدي ، تحقيق حسن كامل الصيرفي ، معهد المخطوطات العربية بالقاهرة ١٩٧١ . ص ٢٣٤ .

(١٢) ديوان عمرو بن قميئة : تحقيق حسن كامل الصيرفي ، معهد المخطوطات العربية . القاهرة ١٩٦٥ . ص ٩٤ .

(١٣) ديوان طرفة بن العبد : تحقيق لطفي الصقال . مطبوعات مجمع اللغة العربية . دمشق ، ١٩٧٥ م ، ص ١٤٦

(١٤) ديوان سحيم عبد بني الحسحاس ، تحقيق عبد العزيز الميمني ، دار الكتب المصرية ١٩٦٨ . ص ٥٢ .

(١٥) الاحاطة في أخبار غرناطة ، لسان الدين بن الخطيب – تحقيق محمد عبد الله عنان مكتبة الخانجي بالقاهرة . الطبعة الأولى . ١٣٩٥ هـ – ١٩٧٥ . ج ٣/ ٤٧٠ . والحلة السيراء ابن الأبار . محمد بن عبد الله القاضي : تحقيق حسين مؤنس . الشركة العربية للطباعة والنشر بالقاهرة . الطبعة الأولى . ١٩٦٣ . ج /٢٧ .

وكقول الشاعر ابراهيم النمري الغرناطي . يرثي خاله من قصيدة :

سقاه على الامراع كل مجلجل ... من الغيث هطال العشيات هتان
اذا حركته في البروق سياطها ... رمت بعشار المزن في كل بستان
ولازال يندي فوقه كل سجسج ... من الظل محفوف بروح وريحان(١٦)

وكقول احمد شوقي يرثي عمر بك لطفي في سنة ١٩١١ م :

فيا قبر، كُنْ روضةً من رضىً ... عليه ، وكن باقةً من زَهَرْ
سَقَتْك الدموع . فان لم يَدُمْن ... كعادتهن سَقَاك المطرْ(١٧)

وفضلا عن ذلك ، ثمة ثبات في المعاني والدلالات التي يمنحونها لتلك المصطلحات والكلمات المترادفة ، وبالرغم من ذلك ، فان المرونة الكبيرة في استخدام هذه المصطلحات التي تبلغ حد الانتقاء . هي بحد ذاتها من المصادر الأساسية لتأثير فكر سابق او شاعرية واسعة . وبعد ذلك عدت هذه المرونة في الفن الرثائي للاجيال التالية دليلا على طاقات السابقين . اذ لانرى في العصور الأسلامية المتأخرة ، خروجا عن الأنتماء الى هذا المناخ الشعري . وخاصة في هذه الظاهرة التي نحن بصددها . فقد «التقت الاهتمامات عند هؤلاء الشعراء وآمنوا بان هذه الظاهرة ، تمدهم بعقيدة او بتصور فكري ما نحو الميت ، بل منحتهم حرية وحافزا وطاقة كبيرة للتأمل . وهم لايجدون مغبة في اقتباس اي فكرة من افكارهم او تحويرها ، طالما هي تشحذ مخيلتهم ، فكان طلب السقيا أحد اكثر عناصر شعرية القدماء التي تم اقتباسها وتحويرها في القصيدة الرثائية في معناها القديم والحديث .

وباستثناء الاستخدام الذي ورد عند بعض الشعراء في « فن الغزل» لهذه الظاهرة — كما سيأتي الحديث عنه — فانها — والى العصور المتأخرة — قد شملت مدى مختلطا من المعاني ذات الارتباط بالمعتقد الايماني وبالخبرة العادية

(١٦) نثير فرائد الجمان في نظم فحول الزمان : لابن الأحمر . اسماعيل بن يوسف ، تحقيق محمد رضوان الداية ، دار الثقافة ، بيروت ١٩٦٧ . ص ٣١٧ .
(١٧) ديوان الشوقيات . احمد شوقي . المكتبة التجارية بمصر ، ١٩٧٠ . ج ٣ /٨٤ .

والحياة في هذا العالم ، وما الى ذلك. ويمكن ان نعرف ماذا كان يخطر ببال ابن زيدون الشاعر الاندلسي (ت٤٦٣هـ) . حينما كتب قصيدته «النونية» الى «ولادة» (ت ٤٨٤هـ) التي وصف فيها « الواقع المأساوي والقاسي » عندما استخدم « طلب السقيا» . كما في قوله .

ليسق عهدكم عهد السرور ، فما كنتم لأرواحنا الا رياحينا
ياساري البرق غاد القصر واسق به من كان صرف الهوى والوديسقينا(١٨)

فالشاعر . يدعو لهذا العهد بالسقيا والنماء ، واستمر هذا الأستخدام الدعائي والأستسقائي في القصيدة الرثائية . في توافقه العميق مع كلمات الأقدمين ومصطلحاتهم .

ان تصور هؤلاء الشعراء — لهذه الظاهرة — كان هو بمضمونه وشكله مامنح ادباء العصور التالية الحرية لمتابعة هذا التصور ، وتقريب تصوراتهم من تصورات الأولين . وان ما كان يجري من تحول لهذه الظاهرة نحو التامل الفلسفي ، هو ماطرأ على فلسفة هذه الظاهرة . كالحديث عن المعتقد وتصور الاخرة . دون ان يقضي عنها استخداماتها الاخرى الخاصة بالقبر الذي هو رمز للموت ،اذ انقلب هذا الأحساس الى مايشبه الراحة والأطمئنان نحو الأخرة للاعتقاد بان رمس المالك هو بيت الحق كما يظهر ذلك في هذين البيتين للضبي يقول :

ولقد علمتُ بان قصري(١٩)حفرة مابعدها خوف عليَّ ولاعدَمْ
فأزور بيت الحق زورة َ ماكث فعلام أحفلُ ماتقوّضَ وانْهدَمْ؟(٢٠)

---

(١٨) ديوان ابن زيدون : تحقيق علي عبد العظيم . دار نهضة مصر . القاهرة . ١٩٥٥ ص ١٤٣ وما بعدها .

(١٩) القصر ، الغاية ، يقال وقصرك ان تفعل كذا ، وقصارك وقصاراك . أي جهدك وغايتك وآخر أمرك . (حاشية ١ . ص ٤٠٣ من رسالة الغفران) .

(٢٠) المعري . أبو العلاء . رسالة الغفران : تحقيق عائشة عبد الرحمن ، دار المعارف بمصر ، ط ٤ ، ١٩٦٣ ، ص ٤٠٣ .

فالشاعر هنا ، تتحول عنده هذه « الثنائية» الى امتداد نحو الاخرة ، وانكماش نحو الدنيا ، بحيث تجد غناها في الاخرة ، كما لم تجده في الدنيا .

وهذا التصور يقع في محيط البيت او الأبيات من الشعر .او حتى بناء القصيدة بحادثة معينة . او اشياء تحمل دلالات خاصة ، او يكون بإضمار الشاعر لدلالة معنوية محددة . تتضمنها تراكيب لغوية بعينها ، فكل ذلك يحتاج معه الى انعام نظر في النص الشعري ، وتقليب دلالاته

ثانيا: خصائص الظاهرة وأبعادها

١ — البعد الديني

روى ابن بشكوال في كتابه الصلة ، ان عبدالرحمن بن عبدالله الأديب المعروف بابن شبلاق — ومنهم من يقول شبراق بالراء — قال « رأيت في النوم كأني في مقبرة ذات أزاهير ونواوير ، وفيها قبر حواليه الريحان الكثير . وقوم يشربون . فكنت أقول لهم : والله ما زجرتكم الموعظة ،ولاوقرتم المقبرة قال : فكانوا يتولون : وماعرفت قبر من هو ؟ فكنت اقول لهم : لا : قال: فقالوا لي : هذا قبر ابي علي الحكمي الحسن بن هاني (٢١) «قال: فكنت اولي فيقولون : والله لاتبرح او ترثيه ، فكنت اقول :

جادتك ياقبر نشاصُ (٢٢) الغمام وعادَ بالعفو عليه السلام
ففيك أضحي الطرف مُسْتودعا واسترت عنا عيون الكلام (٢٣)

يظهر النص ، ان عمل الشاعرهنا في السقيا ، يتجاوز مايجوز وقوعه ، وما هو ممكن على مقتضى الرجحان او الضرورة ، ذلك انه يقفز به الخيال الى عالم آخر يحاول ان يقيم معه تواصلا على مايقتضيه واقع الحياة الأولى .

---

(٢١) هو الحسن بن هاني بن عبد الأول بن الصباح مولى الجراح بن عبد الله . الشاعر العباسي المشهور .

(٢٢) النشاص : السحاب المرتفع .

(٢٣) كتاب الصلة : لا بن بشكوال . ابي القاسم خلف بن عبد الملك . الدار المصرية للتأليف والترجمة ١٩٦٦ . القسم الثاني ، ص ٣٢٥ .

فالسقيا بهذا المعنى، هي الأداة التي يحاول الشاعر القديم من خلالها ان يضفي على تجربته بعدا «حياتيا» ، وبدون هذه العملية تظل التجربة النفسية مهوشة ويمكننا ان نقول، بتعبير آخر ، ان السقيا ، اخراج للدوافع داخلية في شكل موضوعي .

وعلى ذلك ، ينبغي ان يكون لها فلسفة تتجاوز الرؤية الظاهرة ؛ ولانشك ، بأنهم كانوا يزدلفون بها الى «الله» ، وذلك من الاسباب المباشرة ، التي تقربهم الى الله زلفى، ولابأس ان يكون ذلك متأتيا عن الخوف من ظلمة المصير ووحشته وكذلك فانا يمكننا ان نذهب الى أنها تحمل الدعوة لروح الميت.

وعلى العموم، ينبغي للمسألة ان تتناول ضمن اطارها الشامل كبث الحياة في الأشياء واشاعة الراحة والطمأنينة ومامن شأنه ان يبعث على التواصل الحياتي بصفة عامة . وذلك ان الفكرة التي يطمأن اليها ، تقوم على ان الماء هو الحياة ، وانه يمتلك قوة تثير الاهتمام بآثارها الظاهرة والخفية وما تحدثه من تغييرات.

ان تاريخ السقيا ، هو التاريخ لمعاني الحياة التي نشأت فيها السقيا يعكس اسلوبا حياتيا ، وعادات معينة ، كانت انعكاسات لتصورات الانسان عن عالمه ودراسة السقيا تعود بنا الى الماضي البعيد ، اذ نجد ان اقدم الاستسقاءات قد ارتبطت بالاعتماد الديني. ولم تقتصر على العهد الجاهلي . وانما قد تجاوزت الى عاد وثمود (٢٤) .

---

(٢٤) فإن هؤلاء – عادا وثمودا – لما ظلموا في الأرض . وجحدوا واصابهم قحط شديد . اوفدوا الى مكة يستسقون لهم . وهنالك ظهرت لهم سحائب ثلاث ، بيضاء وحمراء وسوداء فاختار رئيس وفدهم السوداء طمعاً بكثرة مائها . فاستبشروا ، وقالوا : هذا عارض ممطرنا ولكنها كانت ريحاً فيها عذاب اليم . اهلكهم على سبع ليالٍ وثمانية أيام (راجع القرآن سورة ٢٦ . آية ٢٤ . وسورة ٦٩ . آية ٦ – ٨) . وتفيد الرواية ان هذا الوفد نزل على معاوية بن بكر . بظاهر مكة . وهنالك ينهض الى الحرم يدعو لعاد . والأشعار تحمل هذا المعنى ، وهي لمعاوية بن بكر :

الا يا قيل ويحك قم فهينهم لعل الله يسقينا غماماً
فيسقي أرض عاد إن عادا قد أمسوا لايبينون الكلاما

(راجع فى خبر عاد ، تأريخ الطبري : ١/١٣٤ – ١٣٧) .

فالسقيا ، قديمة ، ترادف الحياة نفسها ، والأستدلال عليها من الأشعار فقط . قد لايتحقق به الغرض ، لان الأشعار التي عرفتها المصادر والدواوين خلا اغلبها من الأشارة اليها ، مع ان الفن الشعري اوغل في القدم الى عهد حمير والتابعة بل يرفع الى زمن طسم وجديس . ثم يوغل في القدم حتى تقوله عاد وثمود .

ولكن الاخبار السابقة — من ان وفدا لعاد جاء يستسقي لها في مكة المكرمة تعطينا الاطمئنان ، الى ان هذه الظاهرة كانت معروفة ، وان الناس يستسقون في حال الجدب والعطش . وان الحقيقة الدينية عنصر اساسي في ظاهرة السقيا على ماذكرنا في اول البحث . فمكة هي المكان الذي يهرع اليه ، وخاصة فيما يقوله احد افراد الوفد اثر رجوعه من مكة :

عَصَتْ عاد رسولهم فأمسوا عطاشا ماتبلهم السماءُ
وسُيِّر وفدهم شهراً ليسقوا فأردفهم من العطش العماء (٢٥)

وهذا دليل على ان الأساطير التي تشير اليها هذه الاشعار ، انما كانت متداولة في ذلك الزمن وماقبله ، اذ لايمكن ان تكون قد ارتجلت ارتجالا ، دون ان يكون لها اصل ومن المعلوم ان القرآن أشار الى عاد وثمود ، وهذا يدل على ان العرب الجاهليين ، كانوا على علم بأساطير تلك القبائل .. (٢٦)

والجدير بالتنويه ههنا ، ان قيمة هذه النصوص ، ترجع الى انها تكشف عن حقبة قديمة ، تلقي شعاعا قويا ينير مانحن بصدده : وتعيننا على تبصرة هذه القيم وادراك كنهها وعلى اساسها يمكن القول ، بأن تلك الحقبة تعد أصيلة في هذه المفاهيم المعتقدية ، فالاشارات التي تحملها السقيا في شعر ماقبل الاسلام ، ترسخ الاعتقاد بالبلوغ الى حقائق دينية . قريبة الى التوحيد في صورته القديمة .

وبدهي ان الذين خلفوا هذه النصوص التي تحمل هذه الضراعات الى السماء بالاستسقاء لم يكونوا بعيدين عن المشاعر الدينية القوية ، ولم يكونوا بعيدين عن

(٢٥) راجع تاريخ الطبري « تاريخ الرسل والملوك » . لأبي جعفر محمد بن جرير الطبري. الطبعة الأولى . دار الكتب العلمية . بيروت ١٤٠٧ هـ — ١٩٨٧ . ج ١/ ١٣٤ — ١٣٧

(٢٦) في طريق الميثولوجيا عند العرب ، محمود سليم الحوت . دار النهار للنشر ، الطبعة الثانية ، بيروت ١٩٧٩ . ص ٢٥٨ .

الحياة العربية القديمة التي عرفتها الجزيرة ، فخلعت على هذه الاثار هذه القيمة الثقافية الخاصة .

وعلى ذلك ، فان الاهمية للسقيا في حياة الانسان ، ليست فقط لما تمثله من الاتجاه الى العبادة، ولكن ايضاً .لان الماء يؤدي دورا حياتيا ، فالابتهال الى الله سبحانه يمثل في العملية الاستسقائية شيئا من التضحية ..وقد تتخذ اشكالا جديدة لتساير التطور الانساني ، لكن الناس يجدون انفسهم ربما بحكم العادة ،او الرغبة في المحافظة على الميراث « الشعبي» او لغير ذلك من الدوافع — يجدون انفسهم ميالين الى الاهتمام بكثير من مظاهرها .. (٢٧)

وقد يتعسر على البحث ان يفهم ،او ان يفسر الدلالات المختلفة المرتبطة بها —ظاهرة السقيا—فان الانسان شديد الاحساس بالقوى الظاهرة والخفية التي تحيط به وانه يسعر بتأثيرها من حوله .فهو ليس بمستطيع ان يفهمها فهما واضحاً لقد كان الموت من الاشياء المعنية التي يحس بأنه متأكد من تعاقبها على حياته ولكنه يخاف قوة الموت ، ويملأه الرعب منه ، مثله في ذلك ، مثل أخطار الجوع ، ومواسم الاجداب ، فإن ذلك كان يفترسه على تطاول الاوقات .

وتعد السقيا أحد مضامين المرثية الرئيسية . وذلك لما لها من تأثيرات ودلالات فيما يعتقده الانسان ويؤمن به . فهي تنساق على الألسنة . وتجري في الأمثال والحكم . وفي التشبيهات والأستعمالات الحياتية .

ومن الطبيعي — بعد ذلك — ان تكون السقيا من المؤثرات الحيوية في حياة الانسان اذ يسعى الانسان الى ان تكون لديه « فكرة» يتمثل فيها الشيء الأجدى بالنسبة لحياته هو .اوبالنسبة لمن افتقدهم . فانه يجد فيها مايمثل الخصب والخير لقبره .

فاذا ماتوجه الشاعر بالدعاء الى الله ، لان تتنزل الرحمة على الميت ، فان في ذلك مايشبه الاحساس بالندم ، فكأنما السقيا تعمل على دفق جديد من الحياة

(١٧) دراسات في التراث الشعبي ، فوزي العنتيل ،دار المعارف بمصر . ١٩٦٥ — ص ١٢٧

فاذا كان الجسد يفنى . فان معنى جديداً من الحياة تدعو اليه السقيا لان يتجدد يوماً فيوماً .

ان هذه الحياة الطبيعية الناشئة ، ليست الحياة الوحيدة ، فيطمح الشاعر الى حياة سامية تفوق الحياة الطبيعية وتسمو بها . وان في العنصر المائي الحقيقة التي تمنح الحياة ، ومن هنا ، فان الشاعر الذي تضنيه العلة يفتقر الى عون خاص من الله تعالى . لان الهموم قد تتنازعه ، فيصبح مكروب النفس ، ويستسلم — عندئذ — للدعاء على هيئة طلب السقيا .

فلعل ذيوع النصرانية . وقبلها اليهودية (٢٨) في بلاد العرب يقوي مجال التأثير بهذه الظاهرة في هذا الجانب الذي يكون الماء اهم مقوماته ، ومن هنا كان الاعتقاد قويا ان تكون النصرانية « قد أدخلت على العربية الفاظا وتراكيب لم تكن تعرفها العرب ، وفوق هذا ، فان النصرانية كانت من قبل دخولها جزيرة العرب تحمل في ثناياها شيئا من الثقافة اليونانية . كما هو شأن اليهودية »(٢٩) ذلك ان بلاد العرب لم تكن بمنأى حتى ظهور الاسلام عن اليهودية والمسيحية ، فالتاريخ يحدثنا ان قبائل يهودية كانت نازلة في اجزاء مختلفة من الجزيرة . كذلك المسيحية قد شقت طريقها اليها منذ حوالي القرن الخامس الميلادي(٣٠) وذلك يعني ان الديانات القديمة لشبه الجزيرة العربية تتفق في عناصرها الروحية وان اختلفت في طقوسها . بسبب التطورات الاجتماعية التي تعرضت لهـــا

(٢٨) ذلك انه يمكن القول ، ان لهذه الظاهرة صلة بالموروث التوراتي من اساطير وخرافات ومصطلحات دينية جديدة أدخلها اليهود معهم الى ارض الجزيرة . وخاصة ان اليهودية حلت بجزيرة العرب بعد ان تأثرت بالثقافة اليونانية تأثراً كبيراً لانها ظلت قروناً تحت الحكم اليوناني الروماني . ولأنها كانت منتشرة في الإسكندرية وعلى شواطيء البحر الأبيض حيث الثقافة اليونانية .(راجع ، في طريق الميثولوجيا عند العرب ، ص ٢٨ . وفجر الاسلام ، ص ٢٩) .

(٢٩) في طريق الميثولوجيا ، ص ٣٢ . وفجر الاسلام . ص ٣٢ .

(٣٠) التأريخ العربي القديم ، ترجمة فؤاد حسنين علي . مكتبة النهضة المصرية ١٩٥٨ ، ص٢٤٩ . ١٩٥٨ ، ص٢٤٩ .

الجزيرة العربية . فدارس الديانات العربية ، يجد الصلة قوية جداً بين عقائد الشرق والغرب او الشمال والجنوب (٣١) .

ولذلك ، يجب الانتصور ان اديان العرب قبل الاسلام «« لم تتأثر بمؤثرات خارجية .فلم تأخذ من الامم والشعوب التي اتصلت بها شيئاً.جريا على نظرية القائلين بعزلة العرب ، وبعدم اتصالهم بالخارج . وبانهم بدو ، لاعلم لهم ولا رأي ولادين . وهي نظرية نشأت عن عدم وقوف القائلين بها بأحوال العرب قبل الاسلام .. (٣٢) .

على انا نرى ان تقدير هذا التأثر ومقدار تغلغله —على اي صورة من الصور في الحياة العربية . يستلزم ان تولي هذه القضية بعض العناية .فيما كان لها من ارتباط بالأدب نفسه .

يمكن لنا ان نلحظ ان ثمة تيارين بارزين قد عملا في تكوين هذه الظاهرة ، ولكن على تفاوت بينهما .اولهما تيار عربي خالص .نشأ من البيئة العربية نفسها وتولد عن فكرها ومعتقدها.وثانيهما تيار اجنبي تأثر بأبعاد الديانتين :اليهودية والنصرانية فضلا عن تأثره بمصادر ميثولوجية يونانية اخرى . وثيقة الصلة بالتفاعل الحضاري ، مع اليهودية والنصرانية .

ويوجد اذن ، فرضيتان أساسيتان يقوم عليهما البحث . الفرضية الأولى : أن البعد الديني هو النهج الذي كانت تتشكل على اساسه هذه الحقيقة في المرثية . وما زال يسودها ويتحكم فيها ، والفرضية الثانية هي : ان هناك صلة جوهرية قائمة بين السقيا والناحية الدينية والحياتية . وانه لا يمكن تفسير ظاهرة السقيا في مستوى الفن الشعري وحده ، دون الرجوع الى جذور الرؤية الدينية نفسها. في مستوييها الديني والحياتي والفكري على السواء .

واذا كان لنا ان نتطرف في هذه الدعوة . فاننا لا ننسى انها ليست الا ظاهرة واحدة من جملة ظواهر انسانية ، منها مايتصل بحياة الانسان الروحية . ومنها

---

(٣١) المصدر السابق ، ص ٢٥١ .

(٣٢) المفصل في تأريخ العرب قبل الاسلام ، جواد علي . دار العلم للملايين . بيروت. ومكتبة نهضة بغداد- الطبعة الثانية ١٩٧٨، ج ٦/١١ .

ما يتصل بحياته المادية ، وان هذه الظواهر كلها تترابط فيما بينها بدرجات متفاوتة من القوة : ومعنى ذلك انه لم يكن بد من البحث عن هذه « القضية » في الرؤية الدينية .

وبذلك يثبت الاعتقاد ، بأنه لا يمكن فهم هذه الظاهرة الشعرية في معزل عن جوهرها الديني . وان السقيا جزء من حقيقة حضارية لا يفسرها الفن ذاته . بقدر ما يفسرها التصور الديني « ولو أوغلنا في التقدم متعمقين في اصل اللغات لوجدنا ان هذه الظاهرة انما تنبثق في البدء من اصل واحد ، وتتفرع بانشقاق الشعوب ، وتختلف بأختلاف طرق المعيشة التي اخذ بأسبابها كل شعب في نطاقه على حدة . ولهذا نجد كثيراً من الشبه الأصلي في ميثولوجيا الشعوب المتجاورة والمتباعدة منها» (٣٣) فلا عجب اذا كان الدخيل كثيراً في العربية قبل الاسلام ، عن طريق التواصل الحضاري الذي تأثرت به الجزيرة ، وأثرت .

٢ــ التصور الأخلاقي

واذا كانت السقيا تتأثر كغيرها من الظواهر . بالتغيرات الاجتماعية بمعنى ان الموضوعات « الاستسقائية» تختلف من مجتمع لاخر ــ او من عصر لاخر ــ تبعاً لاختلاف الطقس الاجتماعي فان السقيا نفسها تعمل على تصوير ذلك التغير الاجتماعي ، فقد يلاحظ الباحث لهذه الظاهرة في عصر من العصور ، انها سرعان ما تصبح بمثابة القوة المجسدة لتصور الناس . وتوحيد مشاعرهم المختلفة . اذ تشتد دلالتها . أو تقل او توجد معاني جديدة .

فاذا اضفنا الى هذا كله ، ذلك الدور الحيوي الذي تؤديه السقيا للشاعر الراثي . أو الناس بوجه عام ، من الضراعة الى التألم . فضلا عن الحنين والتشوق أدركنا ــ على الفور ــ مدى الجدية التي تقوم بها السقيا في التغير الأجتماعي .

(٣٣) في طريق الميثولوجيا ، ص ١٦ .

ولعل هذا ما يجعل « للمرثية» تميزا فنياً وموضوعياً في الوقت نفسه ، بما تحشده من فيض عاطفي . بيد أن أهم التصورات التي تنضاف الى ما قد تقدم هو التصور الأخلاقي الذي يمكن ان يكون متماساً حتمياً يرشد أبعاد هذه العملية ، من حيث هي المنفذ الذي نطل من خلاله على اعماق الشاعر الثقافية والحضارية ، فذلك وثيق الصلة وعميق الارتباط بالقيمة الاجتماعية — على ما سيأتي — . ذلك ان البكائية ذات أبعاد حقيقية في البنية الفكرية والدينية ، أو حتى الاطار الفني الذي يصوغ منظور الشاعر لهذه القضية ، منذ عهودها الجاهلية الاولى .

وقبل ان نتبين الحقيقة الخلقية التي تقف وراء هذه الظاهرة . نشير الى ان أنواع السقيا — كما سيتضح — لا تتيح للباحث ان يمضي ضمن رؤية واحدة . بل هناك رؤى متعددة . نتيجة تعدد هذه السقيا — على ما سيتضح أيضاً — فهي لقبر الميت تمثل موقفاً انسانياً ، كقول النابغة يرثي النعمان بن الحارث بن أبي شمر الغساني (٣٤) .

سقى الغيث قبرا بين بصري وجاسم ... بغيث من الوسمي قطر ووابل
ولازال ريحان ومسك وعنبر ... على منتهاه ديمة ثم هاطل

وكقول احدهم يرثي امرأته : (٣٥)

سقى جدثاً تضمن أمّ عمرو ... بنخلة ماستهل من الغمام
وما للأرض أستسقى ولكن ... لأصداء أقمن بها وهام

وكقول الحسين بن مطير (٣٦)

ألما على معن وقولا لقبره ... سقتك الغوادي مربعا ثم مربعا

---

(٣٤) ديوان النابغة الذبياني . تحقيق محمد ابو الفضل . ابراهيم . دار المعارف بمصر ١٩٧٧ . ص ١٢١ .

(٣٥) الممتع في علم الشعر وعمله : لعبد الكريم النهشلي القيرواني ، تحقيق : الدكتور محمد زغلول سلام ، منشأة المعارف بالاسكندرية . ١٩٧٧ ، ص ١٨٥ .

(٣٦) ديوان الحماسة : بشرح المرزوقي : ٩٣٤/٢ .

فيا قبر معن أنت أول حفـرة من الارض خطت للسماحة مضجعا

وكذلك هي عندما يستسقي أحدهم للزمان ، ويخص الأيام والليالـي الماضيات، كما في قول أبي أسماعيل أبان بن عبد الحميد اللاحقي على لسان الرشيد يرثي جاريته هيلانة (٣٧) .

سقـى الله دهرا كان يجمع بيننـا ويرغـم فيـه أنف كل حسود

وكقول أبي تمام غالب الملقب بالحجام : (٣٨)

غدوا في مشرق الدنيا ونفسي تناجيهم بأقصـى المغربيـن

انسى عهدهم وهم بقلبـي وأشكـو فقـدهـم وهـم بعينـي

سقى زمناً سقاهم كلّ صفـو وقـد قذيت جفـون الحاسدين

اما التضرع في السقيا للوطن ، أو للمكان على عمومه ، فلذلك شأن يختلف عن بقية الشؤون الأخرى . كما في قول النابغة (٣٩)

سقى دار سُعْدى حيث حلّت بهـا النوى

فأَفْعَمَ منهـا كل رَبْع وفدْفَـد

وقال علقمة الفحل (٤٠)

فلا تعدلي بيني وبين مغمّـر سقتك روايـا المزن حين تصوبُ

سقاك يمان ذو حبي وعارض تروح بـه جنحَ العشي جَنُـوبُ

وقال حسان بن مالك بن ابي عبدة (٤١)

---

(٣٧) الصولي . ابو بكر محمد بن يحيى ، الأوراق – قسم أخبار الشعراء . عني بنشره هيروث دون ، مطبعة الصاوي ، الطبعة الأولى ، ١٩٣٤ ، ص ١٨ .

(٣٨) الذخيرة في محاسن اهل الجزيرة ، أبو الحسن علي بن بسام . تحقيق احسان عباس ، دار الثقافة ، بيروت . الطبعة الثانية . ١٣٩٩ هـ – ١٩٧٩ ، ٨٢٢٣/٣ .

(٣٩) الديوان ، ص ٢١٢ .

(٤٠) ديوان علقمة الفحل ، تحقيق لطفي الصقال . دار الكتاب العربي . حلب ، ١٩٦٩ ، ص ٣٤ .

(٤١) الضبي ، احمد بن يحيى بن عميرة ، بغية الملتمس في تأريخ رجال الاندلس ، دار الكتاب العربي . ١٩٦٧ ، ص ٢٧١ . رقم ٦٦٢ .

سقى بلداً أهلي به وأقاربي غوادي القطار الحيا وروائح
وهبّت عليهم بالعشي وبالضحى نواسم من برد الظلال فوائح

وقال متمم بن نويرة يرثي اخاه مالكا (٤٢)

سقى الله أرضا حلها قبرُ مالك رهام العوادي المزجيات فأمسرعا

وقال البارودي يتشوق الى الوطن وهو في حرب الروس (٤٣)

فيا « روضة المقياس» حياك عارض من المزن خفّاقُ الجناحين دالحُ
ضحوكُ ثنايا البرق ، تجري عيونُهُ بودق به تحيا الرُّبا والصحاصح
تحوكُ بخيط المزن منه يد الصبا لها خُلة تختالُ فيها الأباطح
منازلُ حلّ الدهرُ فيها تمائمي وصافحني فيها القنا والصفائح

وهكذا ، فان الرؤى تتباين ، فليس للحالة الوجدانية ، او الاتجاه الوجداني لدى الانسان ــ عندئذ ــ الاستجابة نفسها .

وعلى ذلك نحاول ان نستجمع اشعاث اولئك جميعاً . لعله يعطي تجسيداً يقرب السمة الأخلاقية لهذه الظاهرة . ذلك لأن السقيا يحددها المكان والزمان والانسان نفسه في مجالات شخصيته المتعددة . فالحزين الذي يستسقي للقبر . قد تكون استسقاؤه عن حقيقة حياتية. تحاول الا تستشعر الاحساس بالفقدان ، او على الأصح. اذ هو يستسقي ، فانه يستذكر الموت والحياة في ثنائية واحدة فكأنما يريد للحياة ان تمتد وتتواصل في القبر الذي يدعو له أن يمرع وتكون له حياة من نوع ما ، لا في معناها المادي المحسوس حسب ، بل في الأستذكار المعنوي ، فان هذا ينم عن رؤية ايمانية ترى ان في الكون موتاً وحياة . ولكن الحياة هي الأبقى ، وان شرخت بقوة الموت الى حين .

---

(٤٢) ابن عبد ربه : العقد الفريد . شرحه وحققه احمد امين وآخرون . لجنة التأليف والترجمة والنشر ، القاهرة ، ١٣٧٥ هـ - ١٩٥٦ . ٣/٢٦٥ .
(٤٣) ديوان البارودي . المطبعة الأميرية بالقاهرة . ١٩٥٣ م . ج ١/ ٩٢ .

والمتألم او المتوجع الذي يستسقي لحتمية الزمان. فأستسقاؤه لا يفارق محور اللحظات الماضية . والأوقات الحاضرة ، وهذه الرؤية الحاضرة — على هذا الأساس — التي تخلقها حالة الشاعر نفسه هي المحور الحتمي المناقض لمعاناة الشاعر ، فكأنما يريد ان يخلق عالماً بديلا ينفذ الى الماضي الهانئ . وهو لا يملك الا ان يستسقي ، لأنه يستريح الى وجود هذه المادة الحياتية . وقد يكون استسقاؤه من هذا الانفصام والانشقاق بين الماضي والحاضر ، تنفيساً عن شعور برفضهما ، سواء في نفسه او في الآخرين .

كذلك قد يكون تضرع الشاعر بالسقيا للزمان منطوياً على نفسية متألمة ، ترقب التغير وتستلهم النظرة الواقعية للحياة . والأستجابة الجادة للمتغيرات . اما الضراعة في السقيا للمكان فتكاد تجمع النزعتين السابقتين معاً ، وتضيف اليهما ذلك الروح الجمالي بعدا ثالثاً ، فالمائية التي يستمي بها من الصفاء والطهارة بحيث تبعث جواً يشيع النظارة من خلال التحول الذي كان متصفاً بالأنقطاع والابتعاد والافتراق الى الاستمرارية المجسدة لحس تحولي في الطبيعة نفسها نحو الخصب والخير ، وذلك من الخصائص الجوهرية للاستسقاء المكاني ، سواء أكان وطناً لأهل . ام وطناً لحبيب ، فالسقيا في جوهرها ههنا تدعو الى حالة توازنية في أكثر الاشياء تضادا ومفارقة . أي انها تحاول ان تأتي بقانون مطلق للطبيعة .

فاذا حاولنا ان نسترجع الأضرب السابقة التي تستثيرها السقيا أمكننا ان نجد اختلافات في النوع والمستوى الوجداني ، لاستجابة الحدث ويستدل على ذلك من خلال المراثي نفسها ، اذا كانت « شخصية » ، او « رسمية » فالمعيار الوجداني يتوقف فيهما على الاسباب الاجتماعية ، اي ان المرثي والتعبير عن الاحساس بفقدانه ، يعطيان نوعية السقيا ، ويعطيان مستوى الأحساس الشاعري .

وليس أدل على ذلك ، من ان نقف على حقيقة السقيا في تعاقبها عبر الأعصر فالشاعر العربي قبل الاسلام ، يكاد لايخرج في سقياه عن « ميثولوجيا» اعتقادية لايخرج عن مفهومها الطقسي بالاعتقاد الحياتي في القبور ، ولكنه مع ذلك لايستسقي دائماً بالطريقة نفسها ، ذلك لأن الاستجابة لديه ، تختلف بأختلاف آدابه العامة ، وقواعده الاجتماعية وطريقته في الحياة ، فنحن نجد الشاعر ينشغل بهذه الظاهرة في قصائد تتفرد بالأهمية والظهور حسب الموضوع الذي يتحدث عنه ، ولكنها في الأغلب تبقى عنصراً يشع بالحياة في المواضع كلها سواء للحياة او الموت ، فالماء عميق الدلالة ، اذ يذكر مع المرأة او الطبيعة ، أو الحيوان ، أو يستدل به على نمط سلوكي ، كقرى الاضياف (٤٤) ، كقول الشاعر العريان بن سهلة الجرمي ، أحد شعراء هذه الحقبة ، وقد عدل الى دار رجل كريم :

فقلت له : اني اتيتُك راغبا ... بسذعلبة تدمى واني امرؤ عان
فقال : الاهلا وسهلا ومرحبا ... جعلتك من حيث أجهل اشجاني
فقلت له : جادت عليك سحابة ... بنوء يُنَدى كلَّ فغو وريحان
وقلت : سقاكَ اللهُ خَمْرَ سُلافة ... بماء سحاب حائر بين مصدان (٤٥)

اوفي التضرع لقبر الميت كما مر .

٣ ـ سيكولوجية السقيا

ليس موضوع طلب السقيا ـ اذن دراسة للقصيدة الرثائية . واذ اكتب هذه العبارة ، فاني ابدأ من موقع بعيد، من اجل ان انفذ في تمريبه في فقرات لاحقة

(٤٤) انظر : نصرة عبد الرحمن . « مقال» المطر ومواضع وروده في الشعر الجاهلي ، مجلة دراسات ، ص ١٠٢ وما بعدها ، المجلد السادس ، العدد ٢ . ١٩٧٩ م .

(٤٥) ديوان الحماسة ، بشرح المرزوقي ، ج ١٦٢٨/٤ . (المصدان : جمع مصاد ، وهي شقوق الجبال والفغو : ما له رائحة طيبة من النبات وكذلك الفاغية . والذعلبة : يوصف بها النعامة والناقة الشديدة السريعة ، وسلافه الخمر : اول ما يخرج من عصيرها. واضافة الخمر اليها على طريق التبيين) .

ليس دراسة السنميا ، بوصفها تاريخاً وشخصيات واحداثاً . بل هي محاولة لاكتناه ابعاد هذه القيمة الحياتية وسبر اغوارها ، وفي هذا السياق . قد تبدو السنميا ظاهرة ذات تشكيل حتميّ واضح في البنية الأساسية للمرثية ، يمكنها ان تدعيه لنفسها ، ذلك ان الشاعر يرى في «المرثي» او من يمتلك المعاينة نفسها نتيجة حتمية لقوة الموت ، فيندفع أمام هذه الظاهرة ليصوغ منها في النهاية خيطاً آخر يصل ما انفصم ، او يوصل ما انقطع من خيوط الحياة الدنيا للمرثي.

ونحن بهذا التفسير لانريد ان ننتزع من هذه الظاهرة عصارتها ، ونجردها من شكلها الفني ، ومن وظيفتها الجمالية ، فالسنميا لها وظيفة ، وتلبي حاجة نفسية عند الانسان ، ويستلزم هذا ، ان تكون السنميا مرتبطة بالانشطة الفكرية والاجتماعية التي تواكبها ، انها ليست مجرد خيال لاضابط له ، بل تحكمها أسباب نفسية وحضارية .

فإذا كانت القطرة من الماء هي البداية الاولى للحياة ، او لاستثارة معنى الدفق الحياتي ، فإنها انما تجسد الشعور بالارتياح والسعادة .

وليس اعمق في الدلالة على ذلك من الماء — ماء السماء — عند الاطفال ، انما هو حشد لمعنى اللذة والسرور ، وعند الناس العاديين ، يأخذ معنى الرضا والابتهاج ، وفي الحالين معا ، فإن البعد الوجداني ، سبب اساسي يعلل السنميا ويفسرها .

واذا كان الموت وما يفرزه من عدمية مؤقتة — ليست أبدية — من العوامل الوجدانية التي تنطوي عليها ظاهرة السنميا وتستدعيها ، شأنها شأن عوامل الارتياح والانبساط ، اللذين يعتبان العملية كلها ، فإن قطرات الماء نفسها التي يضرع اليها الشاعر ، تعد عظيمة الأهمية ، فيما تشغله من حيز في محيط القصيدة ، ومن بعد يفسر العملية ، أو يجد لها تعليلا ، حتى تتنمز شاعريته بعيدة عن « العدمية» الى الخصب والحياة .

ومن هنا ، كانت الناحية الشعورية من اهم مايميز ظاهرة السقيا ، أوالباعثة عليها ، وهذا ما يجعل مبدأ اللذة والاطمئنان عاملين اساسيين على صعيد السقيا نفسها . وهذا ما يمكن ان نعنيه بالضبط من ان السقيا لها وظيفتها النفسية في تخفيف الوقع الجلل ، وترطيب الأحزان والأشجان التي تنبعث من النفس بكثافة ليست تحد ، وانفكاك النفس من التفكير العميق الاسر في انعدام الحياة.

ومن يدري ، فلعل هذه هي الفكرة المحورية التي أدار الشعراء موضوعات قصائدهم عليها في حيز السقيا ، ذلك ان السقيا هي نوع من الفعل الارادي الذي يلجأ اليه الشاعر ، ليتحرر من كابوس الظلمة الحالكة الممثلة لقوة الموت . ويعفي نفسه من عبء التقصير ، فالسقيا هي المنفذ الى معنى الحياة : أو هي الوسيلة الناجعة التي بها يتحقق للشاعر ما يريده ، اويبلغ اليه . تماما كما يسعى في احلامه الى تحقيق مالم يحققه في اثناء حياته ، وكأنما هو يلجأ الى السقيا او «الماء» عندما يلحقه جفاف حياتي من نوع ما . عساه ان يتحقق له نوال رغبته والتخفيف من حدتها .

ولذلك ، كثيراً مانجد حيز السقيا يشغل خاتمة القصيدة ، ولهذا عميق الدلالة فإن الشاعر بعد أن يستنفذ وسائله البكائية الشخصية في الأجزاء الأولى من القصيدة بالجدية والاهتمام نراه يميل الى السقيا ، في وضع استسلام . وهذا طبيعي في موقف التضرع للقوة العليا ، ولكنه نوع – على كل حال من «الصحة النفسية» يعين على تجاوز الواقع ، كما في قول الشاعر الأعمى التطيلي ، يرثي حمد بن الياقي : (٤٦)

سقاك كدمعي ، أو كجودك وابل من المزن بين السَّحِّ والهَمَلان
شأبيب غيث لاتزال مُلثَّةً بقبرك حتى يلتقي الثريان

وكقول الشاعر الرصافي البلنسي ، يستسقي لقبر عبد الله الذي يرثيه :

سقاك ، ولاأخص رباب مُزْن لهل ثراك قد سئم الربابا

(٤٦) ديوان الأعمى التطيلي : تحقيق د . احسان عباس . دار الثقافة . بيروت ١٩٦٢ ص ٢٣١ .

ولكن ما يسوغ على التكافي لقبرك ان يكون له شرابا
فإني ربما استسقيتُ يوماً لك الجونين : جنمي والسحابا
فتخجلُ من ملوحتها دموعي إذا ذكرتْ شمائلك العذابا
تكادُ على التتابع وهي حُمْر تحيَّرُ في محا جري ارتيابا
فليتَ أحمَّ مسك(٤٧)عاد غيما فحام عى ضريحك ثم صابا
وزاحم في ثراك الدمع حتى يشق الى مفارقك الترابا (٤٨)

وليس ورود هذه الظاهرة في خاتمة القصيدة نسقا مطردا ، لايكاد ينخرم او ينكسر ، ليس شيئاً من هذا التناسق الختامي لظاهرة السقيا في القصيدة لم يتغير او لم يتبدل ، بل كانت هناك مواضع كثيرة تنشغل بهذه الظاهرة في القصيدة ذات الأهتمام ، في الوسط منها ، وهو وضع مألوف ،ويكاد يكون طبيعياً ، ولكنه في الدلالة عميق الأثر ، ويحتمل قوة تضرعية أقوى من الحالة الأولى ، عندما كانت السقيا تشغل نهايات القصائد ، لأنها قضية منطقية ، يفزع الانسان الى بعثها من غير ان يستنفده البكاء ، كما في رثاء المتنبي لجدته :

وأصبحت أستسقي الغمام لقبرها
وقد كنت أستسقي الوغى والقنا الصما (٤٩)

وكما في قول ابن الأبار يرثي ابا الربيع الكلاعي :

سقى الله أشلاءً بسفح أنيشة سوافح تزجيها ثقال الغمائم (٥٠)

وكذلك فإن الدلالة أعمق في كونها في الرأس من القصيدة ، أو في مطامها كما في قول أبي بكر بن شيرين ، الذي رثى ابن الحكيم اللخمي المتوفى سنة ٧٠٨ هـ . الذي قتل صبيحة عيد الفطر :

---

(٤٧) أحم مسك : المسك الأسود .
(٤٨) الديوان : جمعه وحققه احسان عباس . دار الثقافة . بيروت ، ط ١ . ١٩٦٠ ، ص ٤٠
(٤٩) ديوان ابي الطيب ، بشرح العكبري ، ضبطه مصطفى السقا واخرون . مطبعة مصطفى البابي الحلبي . الطبعة الأخيرة ، ١٩٧١ ، ٤/ ١٠٢ - ١٠٩ .
(٥٠) عبد الملك المراكشي : الذيل والتكملة بقية السفر الرابع : تحقيق احسان عباس .دار الثقافة ، بيروت ١٩٦٤ . ص ٩١ .

سقى الله اشلاءً كُرُمنَ على البلـــى
وما غضَّ من مقدارها حـادث البلا(٥١)

ولعل توارد السقيا في مواضع مختلفة ، يحتمه وثوق الحال بالمرثي ، أو من في مقامه ، فان الصلة : شخصية او رسمية في الموقف الرثائي ، تنزل هـذه الظاهرة منزلتها في بنائية القصيدة ، وليس ثمة ما يستدعي ايجاد احصائيـة استقضائية ، لأن في النظرة المجردة ، ما يعطي ايجابية يطمأن اليها .

على ان السقيا ، تبقى نوعاً من « استنفاد الطاقة وتفريغها» تتحرر فيـه النفس مما تعاني وتكابد ، لأنها تجد لها منفذاً في الموقف الأستسقائي ، تتفجر عنه الأستجابة . ومن ثم ، فإن طبيعة السقيا تتباين فيما بينها حسب القصد النفسي الذي تؤديه في حياة الشاعر .

ولكن اذا كانت الوظيفة للسقيا هي الوصول بالشاعر الى بعث حالة من حالات الرضا النفسي ، فهل يقتصر هذا الأحساس بالرضا على مجرد ايجـاد التوازن النفسي في حياته ، او ان هذا الاطمئنان النفسي له ملامحه الأجتماعية التي تكسبه أبعاده الحقيقية ؟ ؟

٤ ــ البعد الاجتماعي

ليس أدل على ان السقيا قيمة اجتماعية من عملية السقيا نفسها. فإنها ــ السقيا ــ تستلزم وجود فرد أو أكثر يحفز الاحساس بالاستجابة الدعائية ، وهـي ههنا ، الميت وقبره ، بمعنى اذا اقتصر على الميت نفسه ، وهو في الأغلب لايتوقف ولايمكن له ان يتوقف عند الميت دون الالتفات الى ذويه وجماعته والمعتقد أن هذا التلفت من الشاعر الى الجماعة نفسها ــ في موقف الموت ــ ، جدير بالاهتمام ببعث الشعور بالمشاركة الوجدانية الجماعية ، حتى يستغرق

(٥١) لسان الدين بن الخطيب ، الاحاطة في اخبار غرناطة . تحقيق محمد عبد الله عنان . ٣٠٢/٢ والمقري : نفح الطيب ، تحقيق احسان عباس ، دار صادر . بيروت ، ١٩٦٨ . ٥٤١/٥ .

الشاعر في عملية السقيا . كما يظهر ذلك قول الشاعرة الخنساء في حزنها على اخيها صخر في مدى تأثير الحس الجماعي :

يذكرني طلوع الشمس صخراً وأذكره لكل غروب شمس
ولولا كثرة الباكين حولي على اخوانهم لقتلت نفسي (٥٢)

اضافة الى أن السقيا ، تستلزم دائماً وجود الاخر الذي يكون سبباً موضوعياً لأن يفيض الله سبحانه سجال رحمته على مثواه . وهذا يفسر الحضور الجماعي الذي لا يستطيع الانسان ان يخرج عليه ، أو يحيد عنه .

ولذلك فان من اشراط السقيا ان يوجد الأخر . او ترتبط العملية نفسها بالتصرف في وسط الاخرين ، بحيث انه لا يمكن للشاعر ان يستحضر السقيا في القصيدة ، الا اذا استتبع في ذهنه العلاقة الأجتماعية .

وعلى ذلك يمكن للباحث ان يطمئن الى ان السقيا تتوثق بالحاسة الاجتماعية ، من حيث هي وسيلة اوجدها المجتمع ، او العقل الجماعي ثم حملها الأفراد بإيحاء منطقي سليم ، يمنح السقيا الرحابة في الأفق الأجتماعي الذي يتعامل معه الشاعر ، ويطبق قواعده في دقة بالغة ، قد توحي الى الذهن أنه اقرب الى الآلية . التي خلت من الحس والتفكير .

غير ان هذا الادراك القياسي – في هذه الحالة – لايمكن ان يكون صحيحاً ، لأنه لا يليق بالعاطفة الانسانية من ناحية . ولأن السقيا تحمل للجميع معاني مشتركة ، ودلالات تؤلف فيما بينهم من ناحية أخرى ، حتى لو كانت السقيا تحمل معاني اخرى ، لم تبلغ حد الموت مثلا. كالحنين والشوق ، او محاولة الرأب لأوصال انصدعت ، فانها – أي السقيا – تبقى في الاطار التأثيري نفسه ، أي انها تبقى تستدعي الحس الاجتماعي ، لأنها انما تعمل على تقوية الروح والتعاطف بين الناس ، فان هذا بحد ذاته

---

(٥٢) الديوان : دار صادر . بيروت . ١٩٦٣ . ص ٨٤ .

دور جليل تبثه السقيا في البنية الأجتماعية ، بحيث يقف سبباً قوياً امام قرائح الشعراء ، لما يولونه من اهتمام بهذه الظاهره في قصائدهم الرثائية ويغالون في قيمتها .

٥ ـ البعد الفني الجمالي

على أننا في هذا القدر من البحث ، عكفنا على اظهار هذه الظاهرة . في محاولة ربطت أبعادها بعضها الى بعض ، في اطرها الطبيعية والنفسية والاجتماعية ، وما قد أفرزته هذه الحقائق من مسلك اخلاقي ينظم هذه العملية ، وبذلك يقف البحث عند تحقيق مقصده الأول ، ويبقى عليه ان يخطو خطوة تالية ضمن الرؤية نفسها ، عله يستجلي فنية هذه الظاهرة في منحاها الأدبي .

ذلك ان موقع السقيا في المرثية لا تستغرقه القيمة الفنية بقدر ماهو استجابة عاطفية ووجدانية ، ولعل هذه الحقيقة لاتنطبق على مضامين الفنون الأخرى ، التي تقوى على احداث الأثر الفني ،لأن التضرع بالسقيا ـ أنى كانت ـ لاتقابل الجانب الادراكي العقلي ، ولاتعتمد مخاطبة الوعي ،بل تعتمد على العاطفة ، وتخاطب الوجدان ، ومن ثم فهي « قيمة » تحمل بذورا فنية .

ولكن اذا كانت السقيا بحسب رؤيتنا لها . تجسيداً لمعان حيانية ، كما ألمحنا في أثناء البحث ، فهل معنى ذلك ان السقيا تتجرد من كل طابع جمالي ،لأنها لا يمكن أن تتيح للشاعر التوقف والتثبت بأستيحاء معان جمالية في موقف الموت أو الفراق ؟ ؟

يكفي ان نقول إن السقيا نفسها تستثير الحياة ، وهل الحياة الا النضارة ، والجمال ، ومتى كانت النفس الشاعرة يستلهمها المعنى الواحد دون غيره. وخاصة في موقف الاحزان والأشجان؟ومعنى هذا ان ما في الطبيعة الانسانية

من معان يمكن ان يتوارد في الخاطر ، فتصبح من دلالات هذه الظاهرة .

والذي يقود اليه البحث ههنا أن السقيا يمكن ان تكتسب عمقاً جمالياً أو ان تكون ذات دلالة جمالية ، على الرغم من بلورتها للمعنى الحياتي ، ذلك لأنها تحدث أثراً فنياً عميقاً يحمل على التطهير في موقف رثائي .

على ان السقيا قد تقوم بنوع آخر من التطهير — في موقف الحنيين — يفيض على الشاعر الهدوء والرضا والأستسلام ، حين تلقي به الغربة ، فتنقطع الأوصال ، أو يفارق محبوباً ، تقلبت به الأيام . عند ذلك يستسقي ، أي ينفث همومه ، فيهدأ ويطمئن ، وفي ذلك نوع من التطهير ، لأن النفس تتعلق بالأسباب . فيحمل ما تقوله على الأعتقاد بالممكن ، فيثير في النفس انفعالي الخوف والشفقة ، الشفقة على ماحدث له — للميت أو المفارق — والخوف من ان المصير مثل مصيره ، « فالشفقة تنصرف الى المرثي الذي لايستحق الشقاء ، والخوف ينصرف الى من يشبهنا» (٥٣).

وقد ظهر وجود جانب السقيا في الشعر العربي ، في فنون الغزل والحنين والشوق والرثاء على نحو خاص . واذا حاولنا رصد طبيعة تلك السقيا في هذه الفنون نجد طرفي هذه السقيا يتمثلان بالشاعر والميت وقبره ، اوبالشاعر والعنصر المائي ، فالحيا دخل الى هذه الفنون من أوسع الأبواب ، وذلك بسبب الاحساس بالعناء ،او الجفاء ، او انبتات الصلات وصرمها ، معاً جعل الشعراء عموماً يتفنون عند هذه الظاهرة .

واذا نظرنا الى السقيا وفلسفة وجودها في القصيدة الرثائية وجدنا دورها فعالا ، فهي تفعل في الأحداث بشكل عملي وحي ملموس .

والسقيا نهر ذو روافد متعددة ، فهذه السقيا لا تأتي من جانب الطبيعة فقط ، بل تأتي من جانب المحب في القصيدة الغزلية او من جانب

---

(٥٣) كتاب ارسطو طاليس في الشعر : نقل ابي بشر متي بن يونس القنائي ، تحقيق شكري عياد ، دار الكاتب العربي للطباعة والنشر بالقاهرة . ١٩٦٧ . ص ٧٦ .

الراثي نفسه ، فقد يوحد الموقف الحبي بين المحبين، بحيث يمتزج وجودهما إمتزاجاً روحياً ، ويتوحدان في عملية السقيا .

وكذلك الحال بين المرثي والراثي في قصيدة الرثاء ، التي هي بناء عضوي متكامل لابد لكل عضو فيه، ولا بد لكل اطراف الرؤية الشعرية ، أن يكون لها دور في إحياء القصيدة كائناً حياً متكامل الوجود واذا نظرنا الى آثار السقيا على القصيدة ، ودورها فيها نجدها أحياناً جزءاً لايتجزأ من الوجود الأساسي للقصيدة ، وذلك حين تقوم السقيا بين الشاعر والمحبوبة ، أو بين الشاعر والمرثي ، فكل من الطرفين : الشاعر والمحبوبة ، أو الشاعر والمرثي ، هما طرفا الوجود الفني للقصيدة ، فيكون تأثير وجود السقيا . هو من صلب القضية الفنية ، تماماً مثل وجود الذات الشاعرة .

وللسقيا ايضاً أثرها في توحيد أجزاء الرؤية الفنية ، وذلك حين تقف موقفاً توسطياً بين المحب والمحبوب ، او الراثي والمرثي ، اذ يخلع الشاعر صفات الحياة والحركة والتفاعل على السقيا .

وتخلق السقيا ايضاً وحدة عضوية بين اجزاء القصيدة المتناثرة ، فبدلا من ان يترجم الشاعر ذاته ، ثم يصف السقيا من حيث هي عنصر وجودي قائم ، فإنه يربط بين ذاته وقضيته الفنية ، ثم يربط بين هذه الذات ـ المتجسدة في قضيتها ـ وبين السقيا ، فتصبح المشاركة الوجدانية بين هذه الاجزاء كلها مشاركة فاعلة ، تربط بين تلك الاجزاء في وجود واحد ، يجعل من القصيدة كائنا عضوياً متكاملا ، لكل عضو فيه عمله المحدد .

٦ ـ حول تفسير السقيا

تعد هذه السقيا نقلة جديدة في التشخيص ، ذلك انها جسدت الخصب في قيمته الحياتية ، وهذا من قبيل التصعيد في تشخيص الظاهرة لكي تكون وظيفتها وخصائصها اكثر تحديداً بالنسبة لعالم الشاعر ، فكأنما مهمة السقيا

في هذه الحال — ان تبرز التعارض بين الخصب والجدب ، والحياة والموت ، وأن توجد العلاقة التوية بينهما .

و اذا كان الموت والحياة متضادين ، فلا بد للشاعر من أن يبحث عن وسيلة تجمع بين هاتين الظاهرتين المتعارضتين ، وتقرب بينهما ، وهذا يفسر فلسفته في خلود الروح ، ويبرز مغزى السقيا التي تحكي عن علاقة الاموات بالأحياء ، فاذا كانت قوة الموت تختطف الأحياء وتبعدهم في عالم آخر ، واذا كان الانسان ليست لديه حيلة قط في مخالفة الأموات ، فإن القضية تكون عندئذ ، عن طريق التفسير لحياة ما بعد الموت ، وايجاد العلاقة المستمرة بين الأحياء وبين من كانوا يعيشون .

وهكذا ، تحاول السقيا ان توجد العلاقة الوثيقة بين المتعارضات ، بحيث تبدو الحياة منجذبة نحو الانسان نفسه ، فالغاية النهائية للانسان ، ان تتوافق قوتا الحياة والموت ، والخصب والجدب . لأن توافقهما يضفي على الأنسان مغزى وقيمة . ولا غرو بعد ذلك ، ان نجد الشاعر على الصعيد الزماني : الماضي والحاضر يطلب السقيا ليخفف الصراع بين الموت والحياة المتنافرين أيضاً.

فاذا تساءلنا بعد ذلك عن فلسفة لهذه السقيا الحياتية فاننا نجيب عن ذلك بأن الانسان هو الكائن الحي الذي تكتمل بصنع الحضارة ، بدافع تميزه عن الكائنات الاخرى ، وقد هداه تفكيره إلى ان تكون لحياته استمرارية معينة ، فكانت السقيا — في ظنه — مظهراً يجسد البعد الأخر في الحياة .

وبهذا تستطيع السقيا ان تكشف لنا عن قيمة حضارية متكاملة ، وهذا يقودنا إلى ان ندرك طبيعة السقيا وتحركها في وجدان الشاعر ، فهي تتحرك على مستويين : مستوى كوني ومستوى اجتماعي ، فالمستوى الأول كثير الحضور في نفس الشاعر ، حين يلتجيء إلى «الاله» يستسقيه ، بحيث لا يملك لنفسه حولا ولا قوة ، ومن هنا تبرز العلاقة الدينية ، فالانسان لا يملك أن يفعل سوى الاستسقاء .

والمستوى الاجتماعي يبرز لدى الشاعر ، بأنه تربطه وشائج معينة بالمرثي ، فيذرف الدمع ، لأنه في الحقيقة غير مسؤول فيستسلم .

ولا مفر للباحث — امام هذا — عندما يحاول ان يكتشف دلالة رمز السقيا ، أن يستوعب تلك المعرفة ، بدلا من أن يكتفي بالتفسير لهذا الرمز في اثناء الشرح الوظيفي ، فقد كان الشاعر العربي قبل الاسلام على سبيل المثال ، يستعين بالسقيا ويطلبها لجلب الخير ، إلى ان اصبحت السقيا رمزاً للقوة الخيرية ، وقد يخيل إلي ، ان هذه الحقيقة ، تكفي لتفسير رمز السقيا ، عندما يتساءل عن السبب في الاستعانة بالسقيا ، او الالتفات اليها ، وخاصة في جلب المعنى الخيري .

فالسقيا — اذن — تلتزم ببناء محدد ، ومن شأن البنائية ان تكشف عن المتناقضات التي اثيرت في نفس الشاعر ، ويؤكد هذا قول الخطيب التبريزي في أن طلب السقيا للقبور « أن تبقى عهودها غضة من الدروس ، طرية لايتسلط عليها ما يزيل جدتها ونضارتها »(٥٤) وكذلك قول المرزوقي : «والقصد في الدعاء بالسقيا إلى أن يمد الله المدعو له بما يزيد في نمائه ونضارته» (٥٥).

ومن هنا ، لم تكن السقيا ذات وظيفة نفسية مهمة فحسب لتحقيق التوازن العاطفي لدى الانسان ، بل ان وظيفتها تجاوز ذلك إلى تحقيق نوع من التكامل النفسي والاجتماعي ، في الوقت نفسه ، فالسقيا بمقدار ما لها من وظيفة نفسية ، لها دلالتها الاجتماعية على ما تقدم القول .

ولكن اذا كانت السقيا هي التجسيد للمعنى الحياتي نفسه ، فما مدى دلالتها التي تشكلها في القصيدة على الصعيدين الفني والانساني ؟؟

ان هذا السؤال يقودنا مباشرة إلى تناول المشكلة الرئيسية التي واجهت الشاعر ، واعني بها مشكلة تعليل السقيا وتفسيرها بقصد الوقوف على معرفة

(٥٤) ديوان الحماسة ، بشرح التبريزي ، طبعة بولاق . ٣/٥٠ .
(٥٥) ديوان الحماسة ، بشرح المرزوقي . ١/ ١٠١ .

الاسباب التي تبعث في الشاعر ان ينحو هذا المنحى ، ومحور المشكلة يدور حول احتمال ان هذه الأسباب في الطبيعة الخارجية ، او هي في الشاعر نفسه .

فقد ترجع الأسباب في هذه الظاهرة إلى الطبيعة ، فينظر اليها على انها حدث من احداث الطبيعة ، او ظاهرة تولدها الطبيعة في شعور الشاعر ، بحيث يصبح على الباحث ان يعود إلى الطبيعة نفسها ، لينقب عن تلك العلل التي تولد في الشاعر فاعلية الاستجابة لمعنى السقيا او المطر على العموم : فالطبيعة تحمل هذه الدلالات الحياتية او الخيرية ، التي تجعل الشاعر يلتفت اليها بالمعنى والقول ، وهذا ما تشخصه لنا كثرة من الابيات او الصور الشعرية . يقول عمر بن احمد إبن الأمير محمد بن هشام في رثاء والده سنة ٣١٥هـ :

الا ايها القبرُ الذي ضَمَّ جسمَه ... سقاكَ من الأنواء هتّان ممْرع (٥٦)

ويقول ابو الأصبغ القرشي ، يرثي ابا عامر بن شهيد سنة ٤٢٦ هـ :

أريد بسقيا الغيث إحياءَ حُفْرة ... كدرنا بها نجم العلا المتوقـــدا

ولم ار مثلي بات مُسْتَسْقيَ الحيا ... لماء حياء ، كان يشفي من الصدا (٥٧)

غير ان البحث عن هذه الظاهرة في طيات الطبيعة ، يجعلنا نستبعد ان تكون الطبيعة بأسرها مصادر تنجم عنها هذه القيمة الفنية في موضوع القصيدة ، انما حقيقة هذه الظاهرة تكمن في ماتنطوي عليه من ابعاد ودلالات ، وهذا يقضي ان ليس شيء يطلب لذاته ، وانما السقيا ، هي الظروف التي تحيط بالحقيقة الكبرى ، وهي حقيقة الموت والحياة ، كما تقدم الحديث .

والذي يهمنا الآن ، هو اننا على هذا الأساس ، يمكننا ان نرجع حالات طلب السقيا جميعاً ، إلى القيمة الحياتية التي هي الماء ، فمعظم اسباب السقيا مهما تنوعت ترتبط على نحو ما بهذه القيمة .

---

(٥٦) ابن الأبار : الحلة السيراء ، تحقيق حسين مؤنس ، الشركة العربية للطباعة بالقاهرة ، ط١ ١٩٦٣ . ٢١٤/١ .

(٥٧) ابن بسام الشنتريني : الذخيرة في محاسن اهل الجزيرة . ٢٨٨/١/١ .

ولعل هذا يجعلنا نطلق على هذه الظاهرة «طلب الحياة» بمعنى ان السقيا ، في صميمها ذات دلالة اجتماعية ، لأن ما يبكينا ، او يحزننا هو سوء التوافق مع الظروف المستجدة ، وخروجها على المألوف العام .

على اننا لو حاولنا ان نفهم السقيا في كونها ظاهرة انسانية ، ذات دوافع نفسية ووظيفة اجتماعية ، فضلاعما لها من دلالة جمالية ، لتبين لنا ان هناك مظاهر للسقيا ، تتوافق مع الحياة البشرية نفسها ، فليست السقيا بشيء ذي دلالة واحدة ، وما نستسقي لسبب واحد ، وما نفكر في الاستسقاء على نحو واحد ، فالسقيا ليست هي السقيا الواحدة ، ونحن نستسقي لأسباب كثيرة ، وليس لسبب واحد لا يتكرر ، بل انه قد يكون لكل حالة سقيا تصدر عنها ، ولا تصدر عن حالة غيرها ، كأنما هي لغة كاملة لها اسلوبها الخاص .

قال الفقيه القاضي ابو محمد عبدالحق بن عطية ، يتخلق بأخلاق الشيب قبل المشيب :

سقْيا لعهد شباب ظلتُ امرح في ريعانه ، وليالي العيش اسحار
ايامَ روض الصبا لم تذو اغصنه ورونق العمر غض والهوى جار(٥٨)

وقال ابوعبدالله بن عائشة ، بعد ان اشتعل رأسه شيبا ، ولاحقته الكهولة ، فأقصر عن ايام الشباب ، ولم يبق له الا التشوق والحنين :

فيا راكبا يستعمل الخطوَ قاصداً الا عُج بشُقْر رائحاً ومُغاديا
وقفْ حيث سال النهر ينسابُ ارقما وهبَّ نسيم الأيك ينفثُ راقيا
وقل لأثيلات هناك واجرع سقيت اثيلات وحييت واديا (٥٩)

---

(٥٨) العماد الأصفهاني : خريدة القصر : تحقيق عمر الدسوقي وعلي عبد العظيم . دار نهضة مصر . ٥٣٠/٢ .

(٥٩) ابن خاقان ، أبو نصر فتح بن محمد ، قلائد العقيان ومحاسن الأعيان . تحقيق حسين يوسف خريوش . مكتبة المنار . الزرقاء . ١٩٨٩ . ٩٥٢/٤ .

وقال ابن العربي الفقيه ، يتشوق إلى بغداد ، ويخاطب فيها اهل الوداد :

أمنك سرى والليل يخدع بالفجر خيال خليل قد حوى قصب الفخر
سقى الله مصرا والعراق واهلها وبغداد والشامين منهمل القطر (٦٠)

وقال اليماني يستسقي لغير الميت :

سَقْيا لواديك الأغنّ مريعُـهُ إنّ الشباب به مريع ممْـرعُ
إن كان خدّكِ فيه ورد يانـع فهواك في عيني وقلبي اينعُ (٦١)

ومعنى هذا التلون في السقيا ؛ ان الشعور بطلبها ، يلبي استثارة موجودة في اعماق الانسان ، لأحساسه بالتعاطف والمشاركة الوجدانية ، مع من يخاطب .

وهكذا ، نجد ان السقيا عند بعض الشعراء تقترن بمجموعة من المؤثرات «النسيولوجية» وتقترن عند شعراء آخرين بمجموعة من الميول الدينية ، وقد تقترن بالدلالة الاجتماعية ، وترتبط بالمناخ الاجتماعي ، ومنهم من يرتقي بها إلى المجال الجمالي .

• • •

(٦٠) ابن خاقان ، ابو نصر الفتح بن محمد : مطمح الأنفس ، تحقيق علي الشوابكة ، مؤسسة الرسالة ، بيروت . ١٩٨٣ . ص ٦٣ .
(٦١) الذخيرة : ٣٥٥/١/٣ .

لاشك ، إن هذه الظاهرة ـ السقيا ـ كانت تصور مرحلة دينية متقدمة ، كانت الأدعية والصلوات ، اهم رموزها التعبدية ، وقد تمثل الشعر هذه الآثار في المرثية التي كان التضرع والابتهال اهم خصائصها ، وهذا من الأمور الطبيعية بالنسبة للإنسان القديم في شعوره الديني. ولذلك ليس بمعجب ولا بمستغرب ان ينعكس هذا الاحساس التعبدي في الاطار الفني الشعري ، رمزاً للعالم المفقود، ثم استحال تقليداً فنياً ، طور به الشاعر الجاهلي قصيدته الرثائية ، بحيث غدا اعمق ملامحها .

وعلى ذلك ، فالسقيا ، كانت تحاول ان تبعث تجانساً حياتياً تم فقدانه بقوة الموت وجبروته ، بحيث توحي بتكامل معين ، بين الموت والحياة ، «فتتجاوب الاضداد» في اعماق الانسان ، من باب الأمل المنشود ، مبرزة تلك الصور الفنية .

وتتوافق هذه النظرة الحياتية ، مع منازع حياتية اخرى ، اي ان هذه السقيا ، لا تقتصر على الرؤية الرثائية التي يتحقق فيها الفناء بمعناه الظاهر للإنسان ، وانما هي تتفق مع نزعة الانسان ، الذي يستشعر حالة انفصامية بسبب الابتعاد المكاني والزماني .

المصادر والمراجع

١ ـ **القرآن الكريم** .

٢ ـ **الاحاطة في أخبار غرناطة** : لسان الدين بن الخطيب ، تحقيق محمد عبدالله عنان ، مكتبة الخانجي بالقاهرة ، ط١ ، ١٣٩٥هـ ـ ١٩٧٥م.

٣ ـ **الأوراق . قسم اخبار الشعراء** . لأبي بكر الصولي ، نشره هيروث دون ، مطبعة الصاوي ، ١٩٣٤م .

٤ ـ **كتاب ارسطو طاليس في الشعر** .نقل ابي بشر متي بن يونس القنائي ، تحقيق : شكري عياد ، دار الكتاب العربي للطباعة والنشر بالقاهرة ، ١٩٦٧م .

٥ ـ **بغية الملتمس في تأريخ رجال الأندلس** ، للضبي ، احمد بن عميرة ، دار الكاتب العربي ، ١٩٦٧م .

٦ ـ **البيان والتبيين** ، لأبي عثمان عمرو بن بحر الجاحظ ، حققه حسن السندوبي ، ط٢ ، المكتبة التجارية الكبرى ، القاهرة ، ١٣٥٢هـ ـ ١٩٣٢م .

٧ ـ **تاريخ الرسل والملوك** ، لأبي جعفر محمد بن جرير الطبري ، ط١ ، دار الكتب العلمية ، بيروت ، ١٤٠٧هـ ـ ١٩٨٧م .

٨ ـ **التاريخ العربي القديم** ، فؤاد حسنين علي «ترجمة» ، مكتبة النهضة المصرية ، ١٩٥٨م .

٩ ـ **جمهرة خطب العرب** ، لأحمد زكي صفوت ، مكتبة البابي الحلبي بمصر ، الطبعة الثانية ، ١٩٦٢م .

١٠ ـ **الحلة السيراء** ، لأبن الابار ، محمد بن عبدالله ، تحقيق حسين مؤنس ، الشركة العربية للطباعة والنشر بالقاهرة ، ط١ ، ١٩٦٣م .

١١ ـ **الحيوان** ، للجاحظ ، تحقيق عبدالسلام هارون ، ط٣ ، ١٩٦٩ ، دار احياء التراث العربي ، بيروت .

١٢ ـ خريدة القصر وجريدة أهل العصر ، للعماد الأصفهاني ، تحقيق عمر الدسوقي وعلي عبدالعظيم ، دار نهضة مصر .
١٣ ـ دراسات في التراث الشعبي ، فوزي العنتيل ، دار المعارف بمصر ، ١٩٦٥م .
١٤ ـ ديوان الاعمى التطيلي ، تحقيق احسان عباس ، دار الثقافة ، بيروت ، ١٩٦٣م .
١٥ ـ ديوان امية بن ابي الصلت ، جمع وتحقيق ودراسة عبدالحفيظ ، ط ٢ ، ١٩٧٧م ، المطبعة التعاونية بدمشق .
١٦ ـ ديوان اوس بن حجر ، تحقيق محمد نجم ، دار المصادر ، بيروت ، ١٩٦٧م .
١٧ ـ ديوان الخنساء ، تحقيق اكرم البستاني ، دار صادر ، بيروت ، ١٩٦٣م .
١٨ ـ ديوان ذي الرمة ، تحقيق عبدالقدوس ابو صالح ، دمشق ، مطبعة طربين ، ١٩٧٢م .
١٩ ـ ديوان سحيم عبد بني الحسحاس ، تحقيق عبدالعزيز الميمني ، دار الكتب المصري ، ١٩٦٨م .
٢٠ ـ ديوان الشوقيات ، احمد شوقي ، المكتبة التجارية بمصر ، ١٩٧٠م .
٢١ ـ ديوان طرفة بن العبد ، تحقيق لطفي الصقال ، مطبوعات مجمع اللغة العربية ، دمشق ، ١٩٧٥م .
٢٢ ـ ديوان ابي الطيب المتنبي ، شرح العكبري ، ضبطه مصطفى السقا وآخرون ، مطبعة مصطفى البابي الحلبي ، ١٩٧١م .
٢٣ ـ ديوان عمرو بن قميئة ، تحقيق حسن كامل الصيرفي ، معهد المخطوطات العربية بالقاهرة ، ١٩٦٥م .
٢٤ ـ ديوان علقمة الفحل ، تحقيق لطفي الصقال ، دار الكتاب العربي ، حلب ، ١٩٦٩م .

٢٥ ـ ديوان لبيد بن ربيعة العامري ، دار صادر ، بيروت ، ١٩٦٦م .
٢٦ ـ ديوان المثقب العبدي ، تحقيق حسن كامل الصيرفي ، معهد المخطوطات بالقاهرة ، ١٩٧١م .
٢٧ ـ ديوان النابغة الذبياني ، تحقيق محمد ابو الفضل ابراهيم ، دار المعارف بمصر ، ١٩٧٧م .
٢٨ ـ الذخيرة في محاسن اهل الجزيرة ، لابن بسام الشنتريني ، تحقيق احسان عباس ، دار الثقافة ، بيروت ، ط٢ ، ١٩٧٩م .
٢٩ ـ الذيل والتكملة ـ بقية السفر الرابع ، تحقيق احسان عباس ، دار الثقافة ، بيروت ، ١٩٦٤م .
٣٠ ـ سرح العيون في شرح رسالة ابن زيدون ، لابن نباتة ، جمال الدين المصري ، تحقيق محمد ابو الفضل ابراهيم ، دار الفكر العربي القاهرة ، ١٩٦٤م .
٣١ ـ سنن الترمذي ، لأبي عيسى محمد بن عيسى ، مطابع الفجر الحديثة ، حمص ، ط١ ، ١٩٦٧م .
٣٢ ـ شرح ديوان الحماسة ، الخطيب التبريزي ، طبعة بولاق .
٣٣ ـ شرح ديوان الحماسة ، المرزوقي ، نشره احمد امين وعبد السلام هارون ، ط٢ ، لجنة التأليف والترجمة والنشر ، ١٩٦٨م .
٣٤ ـ كتاب الصلة ، لابن بشكوال ، ابي القاسم خلف بن عبدالملك ، الدار المصرية للتأليف والترجمة ١٩٦٦م .
٣٥ ـ العقد الفريد ، لابن عبد ربه ، حققه احمد امين وآخرون ، لجنة التأليف والترجمة والنشر ، القاهرة ، ١٩٥٦م .
٣٦ ـ فجر الاسلام ، احمد امين ، مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر ، ١٣٦٤هـ ـ ١٩٤٥م .
٣٧ ـ في طريق الميثولوجيا عند العرب ، محمود سليم الحوت ، دار النهار للنشر ، ط٢ ، بيروت ، ١٩٧٩م .

٣٨ ـ **قلائد العقيان ومحاسن الأعيان**، لابن خاقان ، الفتح ابن نصر ، تحقيق حسين يوسف خريوش ، مكتبة المنار ، الزرقاء ، ١٩٨٩م .
٣٩ ـ **لسان العرب** ، جمال الدين محمد بن مكرم الانصاوي «ابن منظور» ، طبعة مصورة عن طبعة بولاق ، الدار المصرية للتأليف والترجمة .
٤٠ ـ **مطمح الأنفس** ، لابن خاقان ، الفتح ابي نصر ، تحقيق علي الشوابكة ، مؤسسة الرسالة ، بيروت ، ١٩٨٣م .
٤١ ـ **المفصل في تأريخ العرب قبل الاسلام** جواد علي ، دار العلم للملايين ، بيروت ، ومكتبة نهضة بغداد ، ط٢ ، ١٩٨٧م .
٤٢ ـ **الممتع في علم الشعر وعمله** ، لعبد الكريم النهشلي القيرواني ، تحقيق محمد زغلول سلام ، منشأة المعارف بالاسكندرية ، ١٩٧٧م .
٤٣ ـ **كتاب الموت** ، سكرات الموت وشدته ، لأبي حامد الغزالي ، تحقيق عبد اللطيف عاشور ، مكتبة القرآن ، القاهرة ، ١٩٧٧م
٤٤ ـ **نثير فرائد الجمان في نظم فحول الزمان** ، لإبن الأحمر ، اسماعيل إبن يوسف ، تحقيق محمد رضوان الداية ، دار الثقافة ، بيروت ، ١٩٦٧م .
٤٥ ـ **نفح الطيب في غصن الأندلس الرطيب** ، المقري ، شهاب الدين ، تحقيق احسان عباس ، دار صادر ، بيروت ، ١٩٦٨م .
٤٦ ـ **الدوريات** : نصرة عبد الرحمن: المطر ومواضع وروده في الشعر الجاهلي ، مجلة دراسات ، المجلد السادس ، العدد ٢ ، ١٩٧٩م .